

البطل الملاحمي المتمرد في السيرة الهلالية الشعبية من المحنة إلى المنحة

The rebellious epic hero in the popular crescent biography
From adversity to grant

فطيمة الزهرة عاشور^{1*}، عبد الرحيم بن فرج²

¹ جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريبيج (الجزائر)، fatimazohra.achour@univ-bba.dz

² جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريبيج (الجزائر)، abderrahim.benfredj@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام: 2023/07/06 - تاريخ القبول: 2023/08/15 - تاريخ النشر: 2023/12/31

ملخص:

تعد السيرة الشعبية أهم أجناس السرد الشعبي العربي، وأكثرها تنوعاً وطولاً وشمولية لبقية الأجناس، والسيرة الهلالية أشهرها، حيث اتسع تداولها في الأقطار العربية، وأهم ما تركز عليه السيرة الشعبية اهتمامها بالبطل المتمرد الذي يخوض تجربة قاسية أثناء مولده وطفولته حتى يشتد ساعده ويقوى عوده، ويقف شامخاً قويا في وجه أعداء قومه ووطنه، فكان أبو زيد الهلالي البطل الذي تتبعنا مراحل بطولته ما قبل مولده حتى انتقال البطولة إلى ذياب الهلالي.

كلمات مفتاحية: السيرة الشعبية، البطل المتمرد، الهلالية، المحنة والمنحة.

Abstract:

The popular biography is the most important genre of the Arab popular narrative, and the most diverse, lengthy, and comprehensive of the rest of the genres. The crescent biography is the most famous, as its circulation has expanded in the Arab countries. Standing tall and strong in the face of the

* المؤلف المرسل : فطيمة الزهرة عاشور¹

enemies of his people and his homeland, Abu Zaid Al-Hilali was the hero whose stages of heroism were tracked before his birth until the transfer of the championship to Dhiab Al-Hilali.

Keywords:the popular navel, the rebel hero, the crescent, the ordeal and the grant.

1. مقدمة:

كانت السيرة الشعبية من أهم أشكال التعبير الأدبي الشعبي الذي كان يرويه رواة محترفون يتقنون سرده والتحايل على التاريخ بطريقة إيجابية لتمرير رسائل من الواقع، وقد كانوا يحضون بالاحترام والتبجيل لكونهم أكثر الرواة ثقافة وعلمًا وطول نفس وتنوع مخزونهم من السرديات الشعبية الأخرى، ذلك أن امتهان سرد السيرة الشعبية يقتضي قوة الحفظ للشعر، وحتى موهبة إنشاده الارتجالي، بالإضافة إلى حفظ قدر وافر من الحكايات الشعبية والنوادر والنكت والأمثال والأغاز الشعبية، ورغم طول مدة سردها فإن التلقي بما كان كبيراً يدعو إلى الدهشة والإعجاب.

والمأمل في السير الشعبية يرصد عدة قضايا مركزية يمكنه معالجتها، لأنها تعتمد ظاهرة التكرار لمجموعة من العناصر، كقضية التداخل الأجناسي، والبنية السيرية المميزة لها عن بقية أشكال التعبير الشعبي خاصة فيما تعلق بالطول والحلقات والطقوس المصاحبة، كما أن من أهم قضاياها البطل الملحمي الذي يعيش تحولات كثيرة حتى يحصل على هذا اللقب، سواء كان مذكراً أو مؤنثاً، فإنه لا يعد بطلاً إلا إذا تجاوز العراقل التي ترفعه في قومه ومن ثم في النص السيري الشعبي، ومن خلال هذا التقديم يمكننا طرح أسئلة معالم كالتالي: من هو البطل الملحمي السيري؟ وما هي مراحل تطور شخصية البطل الملحمي السيري؟ وهل تتميز البطولة من سيرة إلى أخرى؟

2. بين مصطلحي السيرة الشعبية وقصص البطولة:

يعد مصطلح السيرة عموماً معبراً عن نموذج سردي وترجمة حياة شخصية واقعية، كان لها صدى في التاريخ، أما في التراث الشعبي فهي ترجمة حياة فرد أو ترجمة حياة جماعة، ولكن لا نجزم أنها قامت فعلاً

ببطولات خارقة في التاريخ، ولكنها كذلك في المتخيل الشعبي، الذي يجعل منها أيقونة يقتدى بها، فالسيرة «كلمة تطلق في التراث العربي على أعمال كثيرة تتفاوت من حيث دلالتها الاجتماعية، غير أنها جميعا تنفق في مظهر مهم يعكس قيمتها كعمل فني، هذا المظهر هو شعبية المتلقي، وهذا ما يجعل تلك الأعمال الأدبية التي سميت (سيرا) متعة شعبية يحظى بها غير القارئ عن طريق المنشد أو الشاعر، كما يحظى بها القادرون على القراءة عن طريق نسخها المختلفة التي تدون وتطبع أكثر من مرة في أكثر من مكان. وينطلق الجميع من تسمية هذا النوع بالسيرة الشعبية تمييزا لها عن السيرة النبوية، والسير التي كتبها مؤلفون معروفون عن شخصية بعينها. لكن مصطلح السيرة أضيف إليه مجموعة من الأجناس أو الأنواع أو التسميات الأخرى وهي: ملحمة.. ملحمة شعبية، قصة بطولية...»¹، وهناك أسماء ومصطلحات كثيرة أطلقت على هذا النموذج وكتب فيها المتخصصون كتباً ومقالات؛ ذلك أنها تتداخل في كونها تركز على شخصية محورية تمنحها بعدا مثاليا في القوة والأخلاق والمغامرة، ولكن النموذج الملحمي الغربي والسيرة الشعبية بقدر ما يتماثلان بقدر ما لكل نموذج خصوصيته السردية.

وللعرب سير كثيرة «لكن مما يؤسف له إن السير الشعبية التي تعد ذخيرة أدبية كبيرة لم تصل إلينا كلها، وإنما وصل إلينا منها مجموعة قليلة هي: عنزة بن شداد، والأميرة ذات الهمة، وفتوح اليمن، والسيرة الهلالية (وهي كثيرة ومتعددة) والملك الظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن، والأمير حمزة البهلوان، وفيروز شاه، وأحمد الدنف، وعلي الزبيق...»²، ومن بين النماذج السيرة المشهورة والمتداولة في بلادنا «السيرة الهلالية تمثل أفضل نموذج لهذا النوع القصصي البطولي من حيث أنها تحكي قصة العرب الذين استوطنوا المغرب العربي الذين استمروا يعيشون حياتهم البدوية في بعض مناطق استيطانهم»³، وإذا كانت قد اشتهرت كل السير الشعبية، إلا أن السيرة الشعبية الهلالية ظلت هي السيرة المطولة والتي أسرت قلوب المستمعين، وواصل الناس تلقيها إلى أن ارتحلت من المشرق مع أهلها في كل الأقطار التي رحلوا إليها في البلاد المغاربية، ولم يبق النص نفسه بل واصلت تنسج تفاصيل جديدة تأخذ أحداثها من رحلتهم والشعوب التي رفضتهم أو استقبلتهم.

فالسيرة الهلالية هي أهم نموذج لأدب البطولة في العالم، إلا أنه لم يكن ملحمة بالمفهوم الأوربي، فهو نموذج سردي عربي أصيل جاء من رحم البيئة العربية ولم يتأثر بأي نموذج أجنبي، استعمل الشعر حقا ولكنه لم يكتب به بل تلون بالشر ومختلف أشكال التعبير الأدبي، فقد «عرفت مختلف الشعوب على مر العصور أدب البطولة، فظهرت ملحمتا (الإلياذة والأوديسة) عند اليونان، وملحمة (رولان) عند الفرنسيين، وملحمة(السيد) عند الإسبان، والسير الشعبية عند العرب، وهي جميعا تشترك في سمات عامة تطبع هذا اللون من الأدب، من أهمها اعتماده على الوقائع والشخصيات التاريخية ومحاوله الراوي إضفاء ثوب الحقيقة على ما يرويها ووجود وفاق بين إرادة القوى العلوية (الإلهية) وإرادة البطل، وتدخل القوى الخارقة لمساعدة البطل أو محاربه أو مناصرة أعدائه، غير أن تدخلها لا يطغى على ما تصنعه القدرات التي يتمتع بها (البطل الإنسان) وهي قدرات عقلية وجسمانية وروحية، وأدب البطولة أدب موضوعي ذو طابع درامي ينجح إلى المبالغة في التصوير، ويتعين بمجموعة من العمليات السردية يسميها بورايو (آلية السرد) التي تتكرر في كثير من الأحيان بصيغ متشابهة، مثل وصف ساحة القتال، وعدة المقاتل، ومقدراته القتالية والمعركة والانتصار...⁴، فقد كانت السيرة نموذج سردي فائق السحر والجمال، استطاع أن يأسر المتلقي المستمع ويجعله يستمع إلى حلقاتها كل ليلة بانتباه وتمعن، ويمثل نفسه بطلا أو ينتمي إلى عالم البطل السري الذي يعبر عن انتمائهما المشترك، وأنها يحملان نفس الحمولة التاريخية والدينية والأخلاقية، مما يجعل من البطل في حياة المتلقي نمودجا يقتدي به أو يحلم بوجوده في عالمه، ولما لا أن يكون مثله، خاصة وأن الآلية السردية التي يتبعها الراوي في تكوين صورة من التداخل الأجناسي من مختلف أشكال التعبير السردية الشعبي الذي يعرفه المتلقي.

فالسيرة الشعبية وقصص البطولة عموما تتمتع ببعث تاريخي يطمح إلى تقديم صورة عن هوية البطل الذي يضحى من أجل قومه، يعمل الراوي على استمراريتها في الذاكرة الشعبية التي تحترم انتماءه وتعمل على صناعة مزيد التعالق بين الحاضر والماضي في الأجيال اللاحقة خاصة في الأوقات التي تبدأ تحتاج فيه إلى مزيد من التمسك بالهوية الوطنية والشعبية والدينية.

3. من هو البطل الملحمي في السيرة الهلالية:

تعد البطولة المطلقة أحد أهم خصائص السيرة الشعبية والسرد البطولي شعرا ونثرا، فالبطل يحمل كل ما يتمثله الشعب من قيم وأخلاق وسمات جسدية تجعله منه شخصية خارقة غير قابلة للتكرار أو التعدد، بل هو أوهي مكتمل البناء قادر على الانتصار في أي معركة يخوضها سواء تلك التي تحتاج القوة الجسدية أو الفكرية، ف«السير تنطلق من شخصية بطلة نافذة في وجدان المجتمع العربي بأخلاقها النبيلة وفروسيته وبطولتها وغيرها من المزايا والصفات التي تحرص السيرة على نقلها وعرسها في نفوس المتلقين ، لتحقيق أهداف السيرة المتعددة»⁵، وهذه الشخصية الملحمية لا تتوقف عند حدود التفوق الشخصي بل يمتد تأثيرها إلى تحقيق النصر والرفعة والمهابة من شخص البطل إلى رفعة قومه.

ولابد من الإشارة إلى فرق جوهرى بين (السيرة الهلالية) و(القصص الشعبي)، حيث يرى حلمي بدير أن «السيرة الشعبية تاريخية في المقام الأول تعكف على التاريخ لتستخلص مادتها منه، سواء من تاريخ اليمن كسيرة الزير سالم أو تاريخ القبائل العربية كسيرة بني هلال، فالسير الشعبية تحرص على الهدف التاريخي ولا تتحول عنه حتى نهاية السيرة، وأبطالها يتحولون إلى أبطال قوميين أو بمعنى آخر يتحولون إلى "نماذج بطولية" يضرب بها المثل ويقتدى بها في الشجاعة والبسالة والإقدام والفروسية، أما القصص الشعبي فهو يصور في أغلبه الصراع من أجل استمرار الخير من نماذج بشرية أكثر موافقة للواقع المعيشي تُستقى قصصها من الحياة اليومية وبطلها إنسان عادي بسيط فقير عادة»⁶، فكل القصص الشعبي يركز على البطولة، ولكن السيرة تتميز بشخصيتها التاريخية الحقيقية التي تحمل ملامح مشتركة مع بطل القصص الشعبي، فبطل القصص يظل رمزا للخير والشر، وبطل السيرة الشعبية رغم عجائبية صفاته فهو إسقاط على الواقع والتشبع بمبادئ الشعب وتمثلها للاقتداء والفخر بين الشعوب.

ويعتد البطل محور السيرة الشعبية وركنها الأساسي، اسمه عنوانها وحياته مجالها وموته نهايتها ومحط رحالها، ولكن يجب الانتباه إلى أن السيرة الشعبية ليس غرضها رواية قصة هذه الشخصية التي منحته عنوانها ومعالمها بل لها غرض آخر سياسي واجتماعي وديني ومن هنا يمكن اعتبار البطل رمز كبير نسجه

الرواة ليعبروا عن هموم مرحلة تاريخية حرجة⁷، ذلك أنه يحمل ملامح قومه ويحارب لأجل نصرتهم ويكون تكوّن بطولاته مدار تحقيق أحلامهم ورفع الظلم عنهم، فهو الصورة التي تعكس الواقع والمأمول في نفس الوقت.

ومهما كانت الظروف التي توحى بانتخاب هذا البطل... من التواريخ أو الأخبار أو القصص، فالذي لاشك فيه أن ذاكرة الشعب تعتمد بمراحل معينة وتمسك بشخصيات قليلة⁸، وذلك لما لهذه الشخصيات من شهرة ومواقف تاريخية فعلية، وتم تبنيها لموقعها الشعبي، فاختار الشعب أن يجعل منها رموزا للمقاومة في وجه الطغاة والاستعمار، وقد صورها الشعبي كما ينبغي للقادة أن يكونوا لتجاوز محنهم، فكانت مفعمة بالمثالية والجمال والقوة والشهامة والقدرة على تحدي الصعاب.

4. مراحل تحول البطل المتمرد في السيرة الهلالية

فقد التمس العرب من التاريخ العربي عدة شخصيات تاريخية، ابتداء من العصر الجاهلي، كشخصية الشاعر المشهور المهلهل الزير سالم، والذي اعتبرته السيرة الهلالية جدا للهلالي، وقد تم الربط بين السيرتين، و«أطلق اسم بني هلال على القبائل العربية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية في اتجاه المغرب العربي، بعد أن حطّت الرّجال بمصر لفترة من الزمن، وهي رحلة جماعية تعدّدت عواملها وتباينت، فمنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو سياسي، استمرّت الهجرة على دفعات طيلة القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، اخترقت بلاد العراق والشّام، واستقرّ المهاجرون غرب وادي النيل ما بين الصّعيد المصريّ وسفوح جبال الأطلس التّليّ في البلاد المغاربية على امتداد أقطار مصر وليبيا وتونس والجزائر»⁹، وبالرغم من وجود شخصيات ارتبطت بالعصر الجاهلي إلا أنها ربطت بالقيم الإسلامية.

وقد استمرت رحلة بني هلال إلى الغرب الإسلامي، وعرفت السيرة البدوية فصولا جديدة من البطولة، فتغرية بني هلال أنموذج قوي للبطولة البدوية العربية الأصيلة، وشخصية أبو زيد الهلالي هي أهم

شخصية من هذه التفرقة، وأقوى بطولة من بطولاتها؛ ذلك أنه يتمتع بخصائص نفسية وبدنية اقتصر على شخصه وانكفأت على ذاته النبيلة والشريفة والقوية في آن واحد.

1.4 مرحلة النبوءة:

لا يولد الأبطال ويتم استقبالهم مثل الأطفال العاديين، بل يسبق ذلك رؤى ومواقف ونبوءات وصعوبات وعراقيل قد تحدث لأحد الأبوين أو كلاهما، مما يجعل موعد ولادته حدثاً مرتقبا لبعض الشخصيات التي نعرف عليها في افتتاح السيرة الشعبية، وتجعل المتلقي هو الآخر ينتظر التغيرات التي تحدث مع مولد البطل، « ولا تبدأ السيرة الهلالية من لحظة ولادة بطلها، بل تبدأ قبل ذلك بكثير ، فقصة البطل الشعبي تشبه إلى حد ما قصص الأنبياء، فهو منتظر كما كان الأنبياء منتظرين.. فبالرغم من تنوع الأحداث في السيرة إلا أن البطل هو بطل قوي ترعاه نهاية إلهية يصطدم بقوى الشر التعدي فيتغلب عليهما ويزداد قوة، وكلما حاول أصحاب الشر الفتك به نجا وعاد أقوى مما كان، لذلك تصوره السيرة فارسا قويا له ضربة هائلة، يهوي بالسيف على خصمه فيقطع رأسه بضربة واحدة»¹⁰، وقد يتنبأ بخطره للظغاة والملوك، والتشوق من أحد أطراف الأسرة أو القبيلة، كما يتم انتظار لحظة ولادته للتخلص من خطره قبل أن يصل إلى مرحلة القوة المتوقعة والخطر على أحد ما يخاف من زوال ملكه أو حياته.

والسيرة الهلالية تنبأت بأبي زيد الهلالي، ولكنها لم تقدمه مباشرة، بل باشرت بالتفصيل لأصله الطيب ومعدن جده هلال، ورغم انتماؤه للعصر الجاهلي إلا أنها قدمته على أنه عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم ونال شرف الجهاد وكرم دعاء الرسول له ولذريته؛ فهلال الجد البعيد الذي تنتسب له القبيلة الحاربية قبيلة (بني هلال) هو أحد رجال الإسلام الذين أبلوا أحسن البلاء في الدفاع عن الرسول في غزوة تبوك - هذا ما تذكره السيرة وإن كان غير صحيح - فاستحق بذلك التمجيد، ونال نسله فخر البطولة وشرف الفروسية، وفي اللحظة التي تبدأ فيها السيرة يكون فارس بني هلال المغوار هو (رزق بن نايل بن جرامون بن عامر بن هلال)، حامي حمى الحلف الهلالي، وهكذا كان البطل من سلالة الأبطال

والأشراف، و«يذكر جابر أبو حسين في روايته عن السيرة الهلالية أن رزق والد أبي زيد كان حزينا لأنه كان يبحث حواليه عن طفل يلاغيه، فلا يجد، مع أنه لم يكن متزوجا:

بالوج بعيني يمين وشمال

على طفل عندي يلاغيني

جاتني سودة وشو مال

قادر يا رب تعطيني

وبينما كان يسير في الجبل وحيدا سمع شخصا يخاطبه دون أن يراه تصور هذا الشخص من قبل الله يأمره بأن يصغي للصوت، وأن يتزوج من مكة السعيدة، وحدد له صفة هذه الزوجة، وهي أن تكون شريفة من بنات الأشراف هذا إذا أراد أن تكون له ذرية:

سمع ندا من قبل الله

ياخي كل منه وسعيدة

يا رزق اضع على الله

تزوج في مكة السعيدة

ارك لربي المتعال

في جبال امشي وششي ريفيه

ال كان مرادك تخلف عيال

تزوج بعدرا شريفة

هذا الصوت يهزه فيعود إلى قبيلته مسرورا ليحدث ابن عمه الملك سرحان يستفتيه فيما سمع، فيقترح ابن عمه أن ينتظر موسم الحج ويذهب إلى الزيارة تنفيذا لأمر الصوت فإن تحقق مطلبه يكون قد كسب الزواج والحج، فتصبح حجة زواجه

تروح للزيارة وترتاح

ما طلبشي ولا أي حاجة

وال كان اتدور فيه نجاح

أهي تبقى حجة بحاجة

وينفذ رزق كلام ابن عمه وتأخذ النبوة في التحقق»¹¹، وهكذا كان ميلاد البطل أمنية ثم دعوة ثم حجاجا ولقاء بين الأشراف وعلية القوم وأخبارهم، يتزوج (رزق) من (حضرة الشريفة) ابنة الأمير (قرضة الشريف) حامي الحرمين وحامل مفتاح الروضة الشريفة، وينجب منها (أبو زيد الهلالي سلامة)، ليكون بذلك جامعا لطرفي المجد، فهو بذلك شريف من نسل النبي يأخذ ويرث من ناحية أمه الحكمة والعلم، ومن ناحية أبيه مجد البطولة وعنفوان الفروسية، فقد استحق البطل شرف البطولة قبل ميلاده، وورث النبل والأخلاق من والديه وأصوله، «وتذكر رواية عبد السلام أن حضرة خرجت ذات يوم إلى نهر العرايب وكان الطير نازلا متعدد الألوان، كل امرأة تمت على طير من الطيور، وحضرة صامتة حتى جاء طير أسود شتت جميع الطيور تشتيتا، وهنا أخذت تدعو ربها:

وقالت يا رب يا رب.. اديني

طير ومحلاه.. وكل من يضربه

يسيل دماه... وهو السب والحكاية

2.4 مرحلة الميلاد:

فإن كان التغني بأصول البطل الملحمي فاتحة التشويق للمتلقي، فإن اللحظة الحاسمة اللازمة تأتي لحظة مولده، والتي يزداد فيها التعقيد والتخوف والترقب، فلازمة من لوازم الميلاد المعجز، وهو رمز آخر للصراع الذي يخوضه الفرد في سبيل تحقيق الذات المتكاملة، وهذا لا يتم إلا عن طريق اتحاد الشعور مع اللاشعور، وهذا الاتحاد يتطلب بدوره تضحيات كثيرة يشير إليها نفي الطفل، واستبعاده بوصف هذا خطوة أولى في سبيل تحقيق الذات الكلية، فالطفل يبعد عن أبيه وأمه، وليس هناك شيء يرحب بولادته على الرغم من أنه بشير المستقبل¹²، فعادة ما تختار السيرة مسارا للبطل الملحمي قدر له منذ الميلاد

صفات خلقية واجتماعية تجعله منبوذا، رغم كل النبوءات التي تؤكد قدرته المستقبلية لصناعة الفرق وترجيح كفة القوة لصالح قومه، حتى تمكنه أحداث السيرة من تكوين شخصيته بمفرده، واستحقاق الفروسية والحكمة التي تجعله يسمو على كل أقرانه الذين عاشوا حياة طبيعية، فقد كان أبو زيد الهلالي ابنا لرجل من علية القوم وشيخا لقبيلته، وأمّه من أشرف قومها، ولكن ضرورات البطولة اقتضت أن يولد ميلادا خاصا، حيث يستقبل عكس المتوقع في استقبال ميلاد الأشرف.

4.3 مرحلة الرفض:

يولد الأبطال بخصائص جسدية مختلفة، عادة ما تكون عاهات وإعاقات تجعلهم منبوذين، برغم كل النبوءات الإيجابية بقوتهم وقدرتهم على تحويل قدر القبيلة إلى الأفضل، ولكن أهاليهم يتخلون عنهم، هذا التخلي الذي يسفر عن انتمائهم إلى الطبقة المقهورة والمهمشة، ويتربوا بين فئات الشعب دون أن يعيشوا بين الملوك والطبقة المالكة والحاكمة التي ينتمون إليها، فأبو زيد الهلالي بطل السيرة الهلالية يعكس هذا الرفض في أولى أيام ميلاده برغم تشوق والده لميلاده، و«على الرغم من نسب البطل الشريف إلا أن سمرة بشرته وسوادها أدت بوالده الأمير رزق أن ينكر أبوته للبطل أبو زيد، وطلق والدته الأميرة خضرا الشريفة، فقررت الأميرة الخضرا ترك ديار بني هلال وتوجهت إلى قبيلة أخرى تسمى بني الزحلان، ونشأ البطل هناك وترعرع... عاش أبو زيد بطل التغريبة الهلالية في صباه بعيدا عن أبيه وأهله الحقيقيين، مع أن أباه عاش في بلاد السرو (الأردن وفلسطين) بينما نشأ البطل في أرض بني الزحلان، فعانى من الغربة عن الأهل»¹³، فقد عاش البطل غربة عن الأهل والأرض، ولكن كانت هذه المرحلة أهم مرحلة في بناء شخصية وتقوية قدراته، فلم يكن التهميش والنبد إلا خاصية تقوي أواصر المعرفة بالطبقة المقموعة، والمعاشية لحاجات قومه، والتدرب على صعوبات الحياة لمواجهةها لاحقا، و«البطل هو ذلك الذي يولد غريبا وكأن الحياة كلها ترفضه، ولكنه سرعان ما يشق طريقه ويتغلب على الصعوبات، ويحقق في النهاية هدفا يسهم في صنع الصورة المكتملة للحياة»¹⁴، ويحقق الانتصار لنفسه بأن يكون قائدا لقومه ومحل احترامهم وخوفهم من بطشه، وينتصر لهم من عدوهم.

4.4 مرحلة التحدي:

عاش أبو زيد الهلالي تحديات كثيرة منذ الصبي، ولكنه لم يقف منها موقف الضعيف والمنكسر والناقم على قومه وأبيه، وكان أول من أنكر البطل والده وأول من نصره والدته، ولكن ينكر رزق نسب ابنه أبو زيد ويتهم أمه خضرة بالزنا وطردها من مضارب القبيلة وابنها لم يتجاوز 7 أيام، فتربيته أمه على الفروسية من صغره بعد أن تلجأ لحاكم مدينة العلامات الملك فاضل الزحلاني وتظهر على أبي زيد علامات النبوغ وهو طفل صغير، ويستطيع في طفولته أن يخوض صراعا مع بني عقيل أعداء أهله بني هلال، حتى يستعين مشرف العقيلي على أبي زيد بعدد من فرسان بني هلال ومنهم عم أبي زيد الأمير عسقل الذي ساهم في طرد خضرة الشريفة من مضارب الهلالية ويحارب أبو زيد فرسان الهلالية ويقتل عمه الظالم عسقل ويأتي لأمه بحقها بعد أن يعنف أباه الأمير رزق بن نايل ويحكم على بني هلال أن تعود أمه خضرة الشريفة على بساط من حرير تأكيدا لبراءتها، ولهذا نجد أبا زيد الهلالي قد انتصر لأمه أولا وأعاد إليها تقديرها واحترامها بين قومها، وفي نفس الوقت لم تقدم السيرة البطل على أنه شخصية منتقمة بل كان ذلك مقصودا لكي تنكر وراثته البطولة ولا تجعلها حقا لأبيه، بل هي جهده الخاص وهبة الله دون بني هلال جميعهم، بل لم تقم لهم قائمة بين الأعداء حتى عاد إليهم البطل الذي يعيش بينهم ولم يعلمها له والده، فكان أفضلهم رغم بعده عن الديار ورغم الغربة والضعف والحاجة استحق البطولة فاستطاع أن ينال لقب البطل.

5.4 مرحلة الزعامة:

غاب أبو زيد الهلالي فذهب عزهم وعاد فانتصر لهم، ويعود أبو زيد إلى أهله بني هلال ليصبح فارسها المغوار وليقاتل العدو الأجنبي اليونانيين الذين هاجموا الأراضي العربية، وتتوالى مغامرات أبي زيد الهلالي ويخوض تغرية طويلة مع بني هلال عندما يرحلون غربا بحثا عن المرعى بعد ثمان سنوات من الجفاف، لتتوالى فصول سيرته ليرحل إلى تونس ومعه أبناء الأمير حسن مرعي ويحيى ويونس، وتتوالى القصص الفرعية من مقتل مرعي وحب يونس لعزيزة والصدام الكبير بين أبي زيد وحاكم تونس خليفة

الزناتي أو حسب الرواية الشعبية الزناتي خليفة وتقوم الحرب بين بني هلال وحلفائهم قبائل الزغابة من جهة وبين بني قابس بزعامة خليفة الزناتي وأشجع فرسانه المسمى بالعلام من جهة أخرى بعد أن رفض الزناتي أن يحصل بنو هلال على المرعى في أراضيه، لينال جزاءه مقتولا على يد ذياب بن غانم كما تنبأت سعدى الزناتي، وهكذا كانت الزعامة لا تتأني إلا بالحرب والقتال، فكانت بطولة أبي زيد بطولة كر وفر، فأظهرت السيرة أبا زيد الهلالي بطلا متمردا مقاتلا وشجاعا وصاحب حق بالرغم من أنه قتل صاحب الحق والأرض خليفة الزناتي، كما قدم فصلها الأخير شخصية مساعدة هي أبو ذياب الهلالي، تمهيدا لنهايته.

6.4 مرحلة ترحل عن البطولة وانتقال البطولة من أبي زيد إلى ذياب والجزاية:

يعد أبو زيد الهلالي البطل الملحمي الذي كان الجزء الأول منها، وبالرغم من قوة البطل (خليفة الزناتي في تونس، إلا أن أبا زيد الهلالي استطاع أن يتخلص منه، ولكن ظهرت شخصيات أخرى عاشت دور البطولة في التغرية الهلالية، وقد كانت أكثر شهرة في الجزائر (ذياب الهلالي)، ومثلت نوعا من الانفصال عن البطولة الحربية إلى نوع من البطولة الفكرية وقدمت لنا جانبا إنسانيا مختلفا في حياة البطل الملحمي، فلم يتغير مسمى البطل فقط بل وحتى كيفية البطولة، «فقدت السيرة الهلالية، وهي تعاصر تحولات المجتمع الجزائري في القرون الوسطى - باعتبارها شكلا ملحميا مكتملا - شكلها الأساسي، وتحولت إلى سرد لمجموعة من المواقف والحوادث والحوارات. أصابها عدوى أشكال تعبير عتيقة أخرى مثل الحكاية الخرافية والألغاز وقصص الأبطال والحكايات الشعبية»¹⁵، فبعد أن استقر الهلاليون في الجزائر اندمجوا مع سكانها ولم يعد لهم أعداء وحروب كما عاشوه في مصر وتونس، وقد استوطنوا عددا من المناطق الجزائرية الداخلية من بينها مناطق التل والصحراء، أما بالنسبة للبطولة فقد انتقلت من البطل أبو زيد الهلالي إلى شخصيات كانت ثانوية كذياب الهلالي والجزاية، «بحيث سلط الضوء في هذه القصص على شخصيات كانت تلعب دورا ثانويا في السيرة الأصلية، وتركز الصراع حول مكاسب أخرى غير التي عرفتها السيرة الأولى، أما موضوعات القيمة المتبادلة فيها فتحدت وفقا للاحتياجات الجديدة للجماعات الهلالية وهي تستقر في مجال جغرافي وسياسي واقتصادي وثقافي جديد، يختلف عن ذلك المجال الذي تركته في

مصر وفي الشام وفي الحجاز؛ أي في مواطن إقامتها الأولى»¹⁶، ولكنها لم تفقد نكتها الأولى في الحديث عن تاريخها وبداية الرحلة.

ومن نماذج البطولة الفكرية في التغرية الهلالية التي تبرز القيم البدوية وقدرتهم المميزة التي ضمنت لهم البقاء، خاصة بعدما أصبحوا أكثر استقرارا، وتغيير نمط تحصيلهم الرزق من الغارة والغزو إلى الزراعة وامتحنوا الحرف، وذلك أنهم لم يجدوا صعوبة في التعامل مع سكان الجزائر، و«هكذا يرجع انحلال السيرة إلى أقاصيص مجزأة وألغاز وأمثال إلى ما أصاب البناء الثقافي للمجتمع القبلي الهلالي من تصدع بسبب وضعه الجديد بعد استقراره بشمال إفريقيا»¹⁷.

تحكي روايات قصص بني هلال الجزائرية عن علاقة عشق متبادلة بين الجازية وذياب، تعرّضت هذه العلاقة للاضطراب بسبب طبيعة كلّ منهما والقيم التي يمثلها كلّ منهما، وتنتمي الشخصيتان لنفس الجدّ القبلي المؤسس حسب السيرة وكذلك القصص المتبقية عنها، وتفرد الروايات الجزائرية بالتركيز على النسب البربري (الزنازي) الأموي للبطل ذياب... الجازية هي أخت الحسن بن سرحان أحد أمراء بني هلال، وكانت ذات جمال وحكمة، ويقود ذياب بن غانم الهلالي عشيرة زغبة، وهي تعتبر من أقلّ عشائر بني هلال شأنًا، وكان ذياب ذا طبيعة متوحشة.. يمثل الروح الذبئية القبليّة الانتهازية. كان صعب المراس، قضى جلّ حياته منبوذا في القفار رغم سطوته وشجاعته، قتل الدّ أعداء بني هلال، وهو الأمير الزنازي خليفة، كما قتل معظم أمراء قبيلته الذين ينازعونه السلطة الفعلية، ليصبح في الأخير الأمير الأوحده على القبيلة كلّها، اتّسمت علاقته مع الجازية بلحظات التقارب الشديد الناتج عن الإعجاب والمحبة، إلى حدّ إعلان الزّواج والاستعداد له من جهة، والتنافر الشديد بسبب اختلاف المواقف، والإصرار على إخضاع الآخر إلى حدّ إعلان الطلاق في ليلة الدخلة من ناحية أخرى، تشير السيرة الأمّ إلى أن ذيابا قتل الجازية في النهاية لأنّها أصبحت تنازعه السلطة بعد مقتل الأبطال من أسرتها، بينما تشير بعض الروايات الجزائرية إلى هلاك الجازية تنفيذا لميول انتحارية لما أحسّت بمزيمتها في مواجهته، هكذا انتهت القصة بموت المرأة وتسلّط الرّجل، وهو موت يرمز لانتهاء السلطة التقليدية التي قادت بني هلال في تغريبتهم نحو البلاد

المغاربة¹⁸، فقد أحدث الراوي الجزائري تجديدا على نص السيرة الشعبية، فأبقى لها شقا هلاليا وشقا يمثل البيئة الجديدة حتى يمثل قضايا جديدة، خاصة بعدما تحول العدو من داخلي إلى خارجي، كما التحم الهلاليون بالبربر، وانتقل النموذج السردى من سرد السيرة الشعبية إلى القصص البطولي الأوليائي والمغازي.

5. خاتمة:

بعد هذه الجولة العلمية في رحاب السيرة الشعبية الهلالية وبطلها المتمرد، خلص البحث إلى مجموعة من النتائج نذكر أهمها:

. جعلت السيرة البطل الملحمي أبو زيد الهلالي سلامة يعيش حياة البسطاء والضعفاء، فهو من أهل النسب والحقوق ولكن حقوقه سلبت منه واستطاع بنفسه استعادة مكانته بجدارة.

. جسّد أبو زيد الهلالي سلامة حلم الشعوب العربية في بطل من علية القوم ينحاز إلى الضعفاء ويسير آلامهم ويختار الدفاع عنهم.

. حددت السيرة الشعبية شروطا صعبة لتكوين شخصية البطل ووصوله إلى قيادة عشيرته،

. كما جسّد أبو زيد الهلالي سلامة حلم المجتمع الشعبي العربي خاصة بعد الغزو الأجنبي لبلاد المسلمين واستضعافهم، مما جعلت فروسيته حلما يتمنى أن يعود ليتجسد في أبناء الأجيال اللاحقة

. تتنوع السيرة الهلالية وتقدير بطل من الأبطال باختلاف القطر العربي الذي يرويها، فالسيرة الشعبية في الجزيرة العربية وفي مصر وتونس والجزائر تختلف بطولية وأحداثا ورسالة وتلقيا.

. إذا انتهت السيرة الهلالية وأبطالها في الرواية الشفوية إلا أنه استمروا رمزا للبطولة العربية والإسلامية في أشكال التعبير الحديث والمعاصر المسرح والرواية والشعر.

. أهم ما يميز السيرة الشعبية هي تقوية الحس القومي والوطني في شخصية البطل المتمرد على أهله ليقدم لهم الأفضل ويخرجهم من ضيق حيلهم إلى قدرته على إيجاد حلول شجاعة، أما تمرده على العدو فهو لتقوية أواصر الوطنية والتضحية بين أبناء قومه.

6 - الهوامش:

- ¹. زاهر محمد الشماع، فن السيرة الشعبية العربية إشكالية المصطلح، مجلة الموقف الأدبي، العدد 525، دمشق، 2015، ص 42
 - ². المرجع نفسه، ص 42
 - ³. روزلين ليلي قريش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط)، 2007، ص 77
 - ⁴. عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط)، 1986، ص 70
 - ⁵. صالح جديد، أشكال التعبير في السير الشعبية العربية، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 20، البحرين، 2013، ص 25
 - ⁶. حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط 2، 1997، ص 53
 - ⁷. طلال حرب، بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك، الدراسات الجامعية للنشر والتوزيع، ط 1، 1999، ص 116
 - ⁸. عبد الحميد يونس، ملامح البطل في الأدب الشعبي، مجلة الهلال، مصر، العدد 12، 1971، ص 17
 - ⁹. عبد الحميد بورايو، البعد الاجتماعي والنفسي في الأدب الشعبي الجزائري، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط 1، 2008، ص 177
 - ¹⁰. طلال حرب، بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي عصر المماليك، مرجع سابق، ص (117 . 118)
 - ¹¹. أحمد شمس الدين الحجاجي، لنبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية العربية، مجلة الفنون الشعبية، العدد 37، 1992، ص (20 . 21)
 - ¹². نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د ط)، 1981، ص 168
 - ¹³. يوسف بن الطاهر، كبير الشيخ، ملامح شخصية البطل في التغرية الهلالية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الجزائر، مج 12، العدد 1، 2020، ص (730 . 731)
 - ¹⁴. نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مرجع سابق، ص 169
 - ¹⁵. عبد الحميد بورايو، البعد الاجتماعي والنفسي في الأدب الشعبي الجزائري، مرجع سابق، ص 136
 - ¹⁶. المرجع نفسه، ص 137
 - ¹⁷. المرجع نفسه، ص 138
 - ¹⁸. المرجع نفسه، ص 139
7. قائمة المراجع:

1. أحمد شمس الدين الحجاجي، لنبوءة أو قدر البطل في السيرة الشعبية العربية، مجلة الفنون الشعبية، العدد 37، 1992.

2. حلمي بدير، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط2، 1997.
3. روزلين ليلي قريش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط)، 2007.
4. زاهر محمد الشماخ، فن السيرة الشعبية العربية إشكالية المصطلح، مجلة الموقف الأدبي، العدد 525، دمشق، 2015.
5. صالح جديد، أشكال التعبير في السير الشعبية العربية، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 20، البحرين، 2013.
6. طلال حرب، بنية السيرة الشعبية وخطابها الملحمي في عصر المماليك، الدراسات الجامعية للنشر والتوزيع، ط1، 1999.
7. عبد الحميد بورايو، البعد الاجتماعي والنفسي في الأدب الشعبي الجزائري، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط1، 2008.
8. عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط)، 1986.
9. عبد الحميد يونس، ملامح البطل في الأدب الشعبي، مجلة الهلال، مصر، العدد 12، 1971.
10. نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د ط)، 1981.
11. يوسف الطاهر كبير الشيخ، ملامح شخصية البطل في التغريبة الهلالية، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الجزائر، مج12، العدد1، 2020.